أبو الحسن علي الحسني الندوي

ملة إبراهيم وحضارة الإسلام

يجب أن ندعو إليها على بصيرة وثقة

[دعت « ندوة المجاهدين » — المنظمة الاسلامية الكبيرة في ولاية كيرله جنوب الهند — أبا الحسن علي الحسني الندوي لرئاسة احتفالها السنوي المنعقد في ١٨ / من شعبان عام ١٣٨٠ هـ (٥ / من شباط سنة ١٩٦١ م) في كالي كوت ، فألقى هذه المحاضرة — كرئيس الحفلة — باللغة العربية التي هي لغة التفاهم بين علماء جنوبي الهند وشمالها في هذه المنطقة .]

ملتزم النشر والتوزيع
المجمع الاسلامي العلمي
ندوة العلماء ، ص . ب ١٧٨ لكناؤ الهند

من مطبوعات « المجمع الاسلامى العلمى » — لكناؤ (الهند)

رقم - ٩

★

الطبعـــة الثانية

١٤١٢هـ — ١٩٩٢م

★

قام بالنشر

محمد غيـاث الدين الندوى

★

المطبعة النـــدوية

ندوة العلمـاء - لكهنؤ (الهنـــد)

(AP-SN: 64)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد و آله و صحبه أجمعين و من تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

تحيـــة وشكـــر :

سادتى ! إن الذى يجـــد هذه المجموعة الكبيرة الطيبة من أهل العلم و الفضل و الوعى فى صعيد واحد يسعد بلقائها ومعرفتها و يتحدث إليها ، لسعيد جداً ، إنها سعادة يهون فى جنبها ما قطع من مسافات و تحمل من مشقات ، إن هـذا الحفل الذى يجمع بين طبقات مختلفـــة و أفراد جاءوا من جهات بعيدة يبحث عنـــه الداعى فلا يجده بسهولة و يتمناه فلا يحظى به إلا فى النادر ، هذا و القلوب مقبلة و الآذان

صاغية ، فاسمحوا لى أيها السادة ! أن أشكركم على هذه الفرصة الغالية التى أتحتموها لى ، واسألوا الله معى أن يلهمنى الحكمة وفصل الخطاب ، و أن ينفعنا جميعاً بهذا اللقاء الكريم .

سمات العصر الحاضر :

أيها السادة ! لقد اختار الله لكم ، لحكمة يعلمها ، عصراً قد فشت فيه الثورة على الرسالات السماوية و المفاهيم الدينية و القيم الخلقية و الحقائق الغيبية . و كل ما يتصل بما وراء المادة و الطبيعة ، وحلت الفلسفات الاقتصادية و النظم السياسية محل الأديان فى العصور الماضية ، و تولدت مشكلات و أزمات طريفة ملأت كل فراغ فى الوقت و التفكير فى حياة الانسان ، عصراً سمته الاضطراب و القلق و التبرم وحب السرعة ، و الجدة و التطور والطموح وحب التسخير .

ثم إنه عصر لا يزال فيه — رغم التنور و التقدم فى العلم و المدنية — سلطان الخرافات الوثنية ، و العصبيات الجاهلية ، و لا يزال فيه الانسان أسير الأوهام و الشهوات ، أسير العنصرية و الوطنية ، أسير اللون و الجنس ، و لا تزال

الذنوب و المعاصى و الفواحش و المنكرات و البدع منتشرة ، و قـــد أصبح اللهو و تسلية النفس فناً و فلسفة و ديناً و شريعة ، إنه عصر محنة لأهل الأديان و خلفاء الرسل عامة ، و للقائمين بآخر الأديان بصفة خاصة .

وضع لائق لجهاد خلفاء الرسل :

و لكنـــه وضع لا يوجب العزاء و الرثاء ، والجزع و البكاء ، بل يوجب الحمد و الشكر و الغبطة و المباهاة ، إنه وضع كان يليق بخلفاء محمد ﷺ نبي الانسانية و إمام جميع العصور ، فليرحبوا به وليواجهوه بشجاعة و ثقـة و إيمان ، وليقولوا كما قال الأولون لما رأوا الأحزاب : « هذا ما وعدنا الله و رسوله وصدق الله و رسوله ، و ما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » ، فلما ختم الله النبوة بمحمد ﷺ و أكمل هذا الدين — مع بقاء الانسانية وتقدم المدنية و تغير العصور — فقد جعل هذا الدين صالحاً لكل عصر وبلد ، وكتب لخلفائه القيادة و التوجيه لكل جيل ، و أودع فى طبيعة هذا الدين وشريعته ما يجيب عن كل سؤال ، و يفك كل عقـــدة ،

ويحل كل أزمـــة ويواجه كل جديد ، فخـالق العصور هو شارع هـــذا الدين ، و هو الذى يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً(١) » ، و هو الذى يقول : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم و لـكن رسول الله وخاتم النبيين(٢) » .

و لا بقاء للانسانية و لا مطمع فى المدنية الفاضلة ، و لا سبيل إلى سعادة البشرية ، بغير تعـاليم النبوة ونورها وتوجيهها ، فمن جزع من العلماء — خلفاء الرسول ﷺ — فى مواجهة هذا العصر ، و من ضعفت ثقتـه بصلاح هذا الدين لقيادة ركب الانسانية ، و من غلب عليه التشاؤم و رأى أن صفقته خاسرة وجهوده ضائعة لا محالة ، فقد أساء الظن بربه واتهم هذا الدين بالعقم وجهل معنى ختم النبوة ، و لم يكن جديراً بخلافة النبوة ونيابة الرسول ﷺ ، و إنى أعيذكم أيها السادة عن أن تظنوا هذا الظن و تنزعوا هذا المنزع و أنتم حملة لواء العلم و الدين ، و أعضاء « ندوة المجاهدين » .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ـ ٣ (٢) سورة الأحزاب ، الآية ـ ٤٠

المنهاج والشخصية عاملان أساسيان فى الإصلاح وقلب الأوضاع :

أيها السادة ! إن العاملين الأساسيين فى كل مهمة يطلب فيها قلب الأوضاع و إصلاح الأحوال الفاسدة من زمان بعيد ، والاتجاه بالمجتمع إلى نحو جـــديد ، هما : « المنهاج و الشخصية » عاملان اثنـان لا يغنى أحـــد هما عن الآخر ، فلا بد أن يكون منهاج العمل صحيحاً و لا بد أن تتوفر فى شخصيـــة العامل صفات تكفل بالنجاح و تنزل رحمة الله وتوجب نصره ، هذه سنة الله فى الخلق و هذه تجربة التاريخ ، و من عاند هذه السنة خاب وخسر ، وضيع جهوده و وقته ، فللزراعة فى الأرض منهاج ، وللزارع الصالح المفيد شخصية وسيرة ، و لا بد للعمران و للمجتمع الصالح منهما جميعاً ، فمن طالب الزرع عن غير طريقه وحارب طبيعة الأرض و سنة الله فى الخلق عوقب بالخسران و الحرمان ، و إذا فسدت سيرة الزارع أو انحرفت فطرته أو ساءت مقاصده ضيع الجهود و أهلك الحرث و النسل .

حين يجتمع العاملان :

إنهما عاملان أساسيان لا يجوز إهمال أحدهما اعتماداً على الآخر ، و قد اجتمعا أحياناً و انفصلا أحياناً ، و أفضل ما اجتمعا فى التاريخ فى شخصيـــة الرسول ﷺ و خلفائه الراشدين و الأئمـــة المجددين ، فكان أفضل منهاج يقوم به أفضل رجال ، و كان أصح طريق يدعو إليه أقوى شخصيات ، و إذا اجتمعت صحـــة المنهاج واعتداله مع إخلاص العاملين و الدعاة و ربانيتهم ، جاءت النتيجة كفلق الصبح .

و يتلخص حديثنا اليوم فى الاشارة إلى منهاج الدعوة و شخصية الداعى .

أفضل المناهج دعوة الأنبياء :

أما المنهاج فلست فى حاجة إلى الافاضة فى شرح منهاج و التعب فى اختياره و مقارنته بالمناهج الأخرى(١) ، فأفضل المناهج من غير شك منهاج الأنبياء فى الدعوة والاصلاح ،

(١) و قد بحثنا فى ذلك فى كتابنا « ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ، انظر الفصل الأول من الباب الثانى .

فيجب أن تكون دعوتكم دعوة الأنبياء عليهم السلام ، دعوة إلى الله ، دعوة إلى معرفته ، المعرفة الصحيحة المعينة التى جاء بها الأنبياء عليهم السلام ، والايمان به والإخلاص له والانقطاع إليه ، فليكن هتافكم وشعاركم : « ألا لله الدين الخالص(١)» و دعوة إلى حبه ، حباً يملك القلب و يحكم على الأعضاء والجوارح: « و الذين آمنوا أشد حباً لله(٢)» ، « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة(٣)» ، والالتجاء إليه فى جميع الأحوال ، والاطراح على عتبة عبوديته : « و أنيبوا إلى ربكم ، و أسلموا له(٤)» دعوة إلى دار السلام وحنين إلى النعيم المقيم و إيثار الآخرة على الدنيا ، و ليكن هتافكم و شعاركم فى غير حياء و خجل و فى غير اعتذار وتورية : « و ما هذه الحيوة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان(٥)» ، و ترديد كلمة النبوة: « أللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » ،

---

(١) سورة الزمر ، الآية - ٣
(٢) سورة البقرة ، الآية - ١٦٥
(٣) سورة البقرة ، الآية - ٢٠٨
(٤) سورة الزمر ، الآية - ٥٤
(٥) سورة العنكبوت ، الآية - ٦٤ .

و لتكن دعوتكم إلى التوحيد الخالص ، توحيد الألوهيـــة و الربوبية لله ، و إثبات النفع و الضر له وحده ، التوحيد النقي الخالص الذى دعا إليه جميع الأنبياء فى عصورهم وجاهد الرسول عليه السلام فى سبيله فانتهت الفتنة وكان الدين لله .

دعوة إبراهيم ومحمد عليهما السلام و الحضـارة التى أنشآهـــا :

و لتكن دعوتكم إلى ملة إبراهيم ، و دين محمـد ﷺ بالصراحة و التعيين ، و إلى الحضارة التى كان إبراهيم مؤسسها ، و محمد ﷺ مجددها و مكملها ، حضارة لها أصول معينة فى الاجتماع والأخلاق ، حضارة تكفل حرية الانسان وسعادته ، حضارة تخلقها عقائد معينة و أصول معينة و أخلاق معينة ، إنها دعوة إبراهيم و محمد ﷺ لا يقبل الله سواها .

الإمامة الخالدة و الوصاية الباقية :

وجعل الله لإبراهيم الإمامة الخالدة و الكلمـــة الباقية وجعل فى ذريته النبوة والولاية والوصاية الدينيـــة على العالم

الأبد ، و كتب لأسرته و من دخل داره ، الجهاد للحق والوقوف فى وجه الباطل إلى آخر الأبد ، و الدعوة إلى الله ، و تجديف سفينة البشرية فى عواصف هوجاء و أمواج عاتية ، و المحافظة على هـذا السراج من أن ينطفئ ، و هو العامل البناء الوحيد الذى استعمله الله فى إسعاد البشرية وعصمه من تخريب العالم وتدمير الانسانية وسوقها إلى الجحيم ، فلتكن دعوتكم ، أيها العلماء ! إلى ما دعا إليه إبراهيم فى عصره : « و جعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون(١) » ، و لتكن دعوتكم إلى ما دعا إليه محمد ﷺ و أصحابه ، وليكن هتافكم لنفوسكم و تلاميذكم و معاصريكم : « و لا تموتن إلا و أنتم مسلمون(٢) » .

خصائص الدعوة الابراهيمية المحمدية و الحضارة التى تقوم على أساسها :

إن هذه الدعوة الابراهيمية المحمدية — أيها الإخوان — لا تعرف الوثنية و الشرك و لا تسمح به فى

(١) سورة الزخرف ، الآية - ٢٨ (٢) سورة آل عمران ، الآية - ١٠٢

لون من الألوان فى أى مكان و زمان ، فكان أعظم دعاء إبراهيم و أكبر همه : « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام(١) » ، وكان أكبر وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعاً : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان و اجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به(٢) » .

إنها لا تعرف التهالك على الشهوات ، و التكالب على حطام الدنيا ، و التناحر على جيف المادة ، و التقاتل فى سبيل الحكومات و المناصب ، إنها دعوة لم تزل عقيدتها : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض و لا فساداً ، و العاقبة للمتقين(٣) » .

إنها دعوة لا تعرف الفصل بين الانسان و الانسان ، و التمييز بين الألوان والأوطان ، فالناس كلهم من آدم و آدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى و لا لعجمى على عربى إلا بالتقوى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية - ٣٥ (٢) سورة الحج ، الآيات - ٣٠ - ٣١
(٣) سورة القصص - الآية- ٨٣

وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عنـــد الله أتقاكم(١)» ، وقد قال خاتم الرسل ﷺ : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية »(٢) ، و قال لمن هتف بالأنصار و من هتف بالمهاجرين : « دعوها فانها منتنة(٣)» .

إنها دعوة تعرف فى العقيدة بالتوحيد ، و فى الاجتماع باحترام الانسانية و المساواة بين أفرادها ، و فى دائرة الأخلاق و المنهج بتقوى الله و الحياء و التواضع ، و فى ميدان الكفاح بالسعى للآخرة و الجهاد لله ، و فى ساحة الحرب بالرحمة و العاطفة الانسانية ، و فى أنواع الحكومات بترجيح جانب الهداية على جانب الجباية ، و الخدمة على الاستخدام ، و تعرف فى التاريخ بخدمة الانسانية المخلصة ، و انقاذها من براثن الجاهلية و الدعوات المضلة الطاغية ، و فى العالم بآثارها الزاهرة الزاهية و خيراتها الفاشية الباقية .

إنها حضارة عجنت مع اسم الله ومراقبته وصبغت بصبغة

(١) سورة الحجرات ، الآية - ١٣ (٢) رواه أبو داؤد
(٣) رواه البخارى فى كتاب التفسير و مسلم فى صحيحه فى كتاب البر

الله ، و قامت على أساس الايمان ، فلا يمكن تجريدها عن الطابع الدينى و اللون الربانى و الروح الايمانى .

مهمة أتباع الدين الحنيف فى بلاد الوثنية :

كونوا أيها الاخوان ! حملة دعوة إبراهيم و دعاة إلى الحضارة الابراهيمية المحمدية ، فى بلاد تدين بالبرهمية وتحرص على إحيائها و إعادتها و تطبيقها فى التعليم و التربية و فى الحضارة و الفلسفة ومناهج تعليمها و كتبها الدراسية قائمة على أساطير الآلهة والإلاهات و على علم الأصنام العتيق ، و ليس لأتباع ملة إبراهيم و أبناء الدين الحنيف إلا أن يقاطعوها و يحتجوا ضدها ، ويلحوا على سحب هذه المواد الوثنية من الكتب التى تفرض عليهم دراستها فى جمهورية علمانية كالهند ، و يتكفلوا بتعليم أبنائهم و تربية الجيل الجديد تربية إسلامية ، و يعملوا بوصية إبراهيم لأولاده : « و وصى بها إبراهيم بنيه و يعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا و أنتم مسلمون(١) » .

(١) سورة البقره ، الآية - ١٣٢

تذكير للعالم العربي :

لا تكونوا حملة هذه الدعوة فى هذه البلاد البرهميـــة فحسب ، بل عليكم أن تحملوا هذه الدعوة إلى مشارق الأرض ومغاربها ، و لا يبعـــد أن تحملوا هذه الدعوة إلى البلاد العربية التى ينتمى أبناؤها إلى سيدنا إبراهيم نسباً و عقيدة ، وسلالة و ديناً ، فقد أصبحت مع الأسف فى حاجة شديدة إلى إحياء هذه الدعوة و تجديدها ، و قد حدث فيها من العوامل السياسية والاجتماعية و الثقافية ما أضعف صلتها بهذه الدعوة و الحضارة أخيراً ، و شغلها عن الكفاح فى سبيلها و الدعوة إليها فى إخلاص وحماسة كما كان شأنها فى الماضى ، و أصبح بعضهم بذكر جاهليته فى حنين و إجلال ، و أمجاده و أبطاله الذين أخملهم الاسلام فى تقديس و إكبار ، احملوا هذه الدعوة إلى مركزها الذى نبعت منه و انتشرت فى العالم ، فى رفق و حكمة و إخلاص و إكرام ، حتى يقبل عليها و يعتنقها ويقول ، وتصدقون : « هذه بضاعتنا ردت إلينا(١)» وصدقوا أنه

(١) سورة يوسف ، الآية - ٦٥

إذا نهض بهذه الدعوة من جديد غير مجرى التاريخ كما فعل فى الماضى ، و خضعت له القلوب و الأوضاع كما وقع بالأمس .

فضل التمسك باللغة العربية و ثقافتها :

أعجبنى أيها الاخوان — يا أبناء كيرله و مالابار — تمسككم باللغة العربية ومحافظتكم عليها ، و تلك ميزة تنفردون بهـا فى شبه القارة الهندية حتى يحتاج هنـــدى مثلى إلى أن يتحدث إليكم بالعربية ، أحيى فيكم هذه الغيرة ، و هـــذه الاستقامة ، فقد حفظتم هذه اللغـــة حين ضيعها المسلمون فى الهند كلها ، وعرفتم حقها وفضلها حين جهلها المسلمون فى بلاد إسلامية كثيرة ، و أنتم تستحقون ثنـاء المسلمين جميعاً و اعترافهم و تقديرهم ، ولكم أن تفقهوا العقيدة الاسلامية وتتضلعوا بالثقافة الاسلامية بفضل هذه اللغة ، و أن تستقوا الشريعة من منابعها الصافية الأصيلة ، وأن تحملوا الدعوة الاسلامية إلى البلاد العربية .

قيمة اللغة العربية وسر خلودها :

و لـكن ذلك لا يمنعنى عن أن أقول لكم إن قيمة هذه

اللغة الكريمة وفضلها أن نطق بها أتباع إبراهيم و حملة دعوته زمناً طويلا وبعث محمد ﷺ فى الناطقين بها ، ونزل الكتاب الأخير الذى أكرم الله به الانسانية فى هذه اللغـــة ، و إذا انقطعت صلة أمة عن هذه الدعوة و الحضارة لم تنفعها صلتها بهذه اللغة والثقافة ، فليكن حرصكم على لباب الدين وجوهره ، و على دعوته و تعاليمه أكثر من النطق بهذه اللغة و البراعة فيها .

تمسك بالاصول و الغـايات
وتوسع فى الوسائل والآلات :

يجب أن تميزوا بعد ذلك بين الغاية و الوسيلة ، و قد أخفق فى ذلك الكثيرون من زملائكم و إخوانكم ، فعاملوهما معاملة واحدة و ألحوا على كليهما ، لقد جمدوا على الوسائل حين وجب التوسع فيها و اختيار الأنفع الأصلح ، والأفضل الأمثل ، والأحد الأقوى ، والأسرع الأمضى ، لقـد كان الواجب أن نبقى متمسكين بالدعوة الابراهيميـــة و أصول الحضارة الاسلامية ، نعض عليها بالنواجـــذ ونقاتل دونها و لا نتخلى عن شعيرة من شعائرها وركن من أركانها بل سنة

من سننها ، ونتوسع فى العلوم ومرافق المدنية ومناهج التعليم و وسائل القوة و اقتباس العلوم النافعة ، لقد كان المطلوب الصلابة فى الأول و المرونة فى الثانى ، و قد ختمت الشرائع و أكملت الأديان و وضعت أصول الأخلاق وعينت مبادئ المدنية الصالحة ، و بالعكس قد أطلق عنان العقل و التفكير والاكتشاف والاختبار وفطرت العلوم على النمو والاكتمال تدريجاً و العقول على التوليد و التلقيح ، و الانسانية على الاختبار و المغامرة ، و لكن كثيراً من المنتسبين إلى العلم و الدين لا يفكرون هذا التفكير و يتمسكون بصورة الوسائل و المناهج تمسكهم بالمقاصد و الغايات .

جناية هذا الغلو وعدم التمييز :

و قد جنى هذا الغلو و التقصير فى التفكير على المجتمع الاسلامى أولا و على العالم الاسلامى آخراً ، فقد تعطل الفكر الاسلامى و وقف عن الابتكار و التوليد من زمان ، وبقيت مناهج الدراسة عندنا لا تساير الزمان و لا تفى بالمطلوب و لا تؤتى أكلها كل حين ، لقد كان الواجب

أن نجددها و نخضعها لغاياتنا و تنفخ فيها روحا جديدة ، ونجمع بين الدين والدنيا والقديم و الجديد ، فديننا أبدى ليس فيه القديم و الجديد ، و رسالتنا عالمية لا شرقية و لا غربية .

صلابة الحديد ونعومة الحرير :

إننا قد خلطنا أيها الاخوان بين الغايات و الوسائل ، فلنبدأ من اليوم عهداً جديداً ، فاذا كانت الغايات فلتكن فينا صلابة الحديد ، و إذا كانت الوسائل فلتكن فينا نعومة الحرير ، إنه لا غنى لنا عن القرآن و الحديث و الفقه فى عصر من العصور ، و إذا كان هذا المقرر فلا غنى لنا عن علوم اللغة و الصرف والنحو و الأصول ، و ليس لتعليمها طريقة واحدة و لا منهاج واحد لكل عصر و لكل بلد ، و علينا أن نختار الأوفق بطبيعتنا و طبيعة البلاد والأوضاع المحيطة بنا والأكفل بالنجاح والأضمن بالنتيجة .

الدعوة ولغاتها و أساليبها المختلفة :

لا بد من الدعوة الاسلامية فانها قوامنا وقيمتنا وحكمة خلقنا وسر وجودنا ، و لها أسس ومبادئ وأهداف معينة ،

ومادتها القرآن و السنة و السيرة النبوية و حكمة الدعوة ، و لكن ليست لها لغة مقررة وأسلوب معين ، و كلمات خاصة يرددها الكاتب و الخطيب فى كل عصر و بلد ، إنها دعوة للانسانية الناميـــة المتطورة إلى دين الفطرة الخالد الجامع ، فلنختر لهذه الدعوة الأسلوب العصرى الحكيم و اللغة العذبة الرقيقة ، و البيان المشرق المؤثر ، ونستخدم لها الأدب و الذكاء و البلاغة ، والأساليب العصرية المقبولة ، حتى ننفذ بذلك فى المجتمع والأذواق ، ونؤدى رسالتنا أحسن تأدية ، و هكذا فعل السلف ، فكان فيهم دعاة و مصلحون و متكلمون ومجددون ، يستحقون أن يعدوا فى طليعة أدباء العالم و أمراء البيان و أئمة المدارس الأدبية و المناهج الكلامية .

لا بد للاسلام من الغلبة و العلو والانتشار ، هذه هى الغاية لا شك ، و لكن ليس للوصول إلى هذه الغاية طريق واحد و وسيلة واحدة ، فلنختر من الوسائل و الطرق أقربها وأيسرها و أضمنها للوصول بشرط أن تكون صالحة مطابقة للشريعة مستنبطة من الكتاب و السنة ، و ليس مبدأنا « الغاية

تبرر الواسطة » ، إننا مكلفون بصلاح الغاية وصلاح الوسائط .

وهكذا أيها الاخوان ! يجب علينا أن نستخدم لتبليغ الدعوة الابراهيمية و الرسالة المحمدية كل عقل و تفكير و كل قوة و وسيلة ، و نجمع بين التصلب فى الغايات والتوسع فى الآلات ، و ذلك شأن العلماء الراسخين والدعاة العاقلين فى كل زمان .

العامل الثانى : شخصية الداعى :

و قد تحدثت إليكم عن المنهاج ، و فى ما قلت بلاغ ومقنع للعقلاء ، و لا أريد أن أزيد عليه ، واسمحوا لى أن أحدثكم الآن عن شخصية الداعى و العامل ، فذلك هو العامل الأساسى الثانى فى مهمة الاصلاح و الدعوة .

صفات الداعى ومؤهلاته :

إن للداعى صفات ومؤهلات ، لا بد منها لتحقيق الغاية المنشودة ، و هى التى تكسب العمل قوة وتأثيراً وقبولا ، و إذا تجرد عنها منهاج للدعوة كان صناعة و تمثيلا وفناً ، و كان مسرحية دينية لا روح فيها و لا حياة .

الإخلاص و التجرد عن المطامع:

إن أول هـذه الصفات هو الإخلاص الذى لا يقبل الله عملا بغيره ، و إذا تجرد عنـــه كان زبداً يذهب جفاءاً أو ذرة تطير هباءاً ، و أفضل السياسة وخير الحكمة فى كل زمان هو الإخلاص ، إن المجتمع مهما بلغ من القسوة و الغباوة و البلادة ، و مهما أمعن فى المادية ، فانه لم يزل و لا يزال خاضعا للمخلص مقراً له بالفضل مؤمناً باخلاصه ، و لم يفقد — فى أشد أدواره المادية و فى أشد انحرافاته — القوة التى تميز بهـا بين المخلصين و غير المخلصين المحترفين ، و لم يفقد حب المخلصين و الميل إليهم ، إن أفضل سلاح نستطيع أن نحارب به هذه المادية الرعناء هو سلاح الإخلاص و الزهد فى حطام الدنيا و ما يتكالب عليـــه عبـاد المادة و يتهالكون عليه من الجاه و المنصب ، و الرخاء و الثراء ، و فضول الأموال والألقاب ، و بهذا السلاح حارب المخلصون فى كل زمان و تحصنوا به ، و هى اليد البيضاء التى أشرقت بهـا الظلمات ، و ذابت بهـا المنافسات و أخفقت بفضلهـا

المؤامرات ، وانقشعت بها التهم و الشبهات ، المادية عنيفة مسلحة بأقوى الأسلحة و نحن فقراء ضعفاء عزل ، و لكن الله سبحانه و تعالى رزقنا سلاحاً ليس عند أقوى الحكومات و أعظمها سلطاناً ، هو سلاح « الإخلاص و التجرد عن المطامع و العزوف عن الشهوات » ، إنى لا أحرم عليكم الطيبات و ما أحل الله لكم من متاع الدنيا و أسبابها ، ولوشئت لما استطعت ، فهذا الكتاب حجة علينا و هو الحاكم بيننا ، و هو يقول : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده و الطيبات من الرزق(١) » ، و لكن أقول لكم إن الإخلاص و الزهد مرتبة دون تحريم الطيبات ، هو القناعة والرضا و التوكل على الله فى غير عجز و بطالة ، والإعتزاز بالايمان و العلم و المعرفة ، والإعتداد بالنفس ، وعلو الهمة فى غير كبرياء وصلف ، ذلك الزهد الذى تجلى فى سيرة العظماء و المصلحين الذين يتجمل بهم تاريخ الاصلاح و التجديد ، و قد تتبعت أيها السادة ! تاريخ الاصلاح

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ـ ٣٢

فرأيت أن الذين استطاعوا أن يؤثروا فى عصرهم تأثيراً عميقاً و نحوا بالمجتمع نحواً جديداً ، وقلبوا تيار الأفكار ، كانوا على جانب عظيم من الزهد و القناعة وعاش كثير منهم فى شظف من العيش وتقشفوا فى الحياة حتى أصبحت أعتقد أن الزهد عامل من عوامل النجاح و التأثير ، و ما يصدر من هؤلاء الزهاد من كتابة و إنتاج و إصلاح و تجديد يكتب له البقاء والخلود و يقدر له الانتشار و القبول ، فليكن هذا أساسكم فى كل أعمالكم حتى إذا أسهمتم فى السياسة و دخلتم فى كفاح ، كنتم ممتازين باخلاصكم و نزاهتكم ، و زهدكم فى المناصب و المنافع .

قوة الصلة بالله تعالى :

الشيء الثانى هو قوة الصلة بالله تعالى ، و هو الذى يعبر عنه القرآن تارة بالإنابة و تارة بالإخبات ، إنكم لا تستطيعون أن تعيدوا الايمان و الثقة بالله إلى نفوس العامة و الخاصة ، و تملأوها حماسة دينية و كيفية إيمانية ، بايمان ضعيف تقليدى ، إن القلب البارد الخامد لا يستطيع أن يشعل قلوب الآخرين ، إن الجمر إذا انطفأت النار فيه

لا يدفق الناس ، إن جميع من قاموا بخلافة النبوة و نفخوا فى المجتمع روحاً جديدة وقاوموا المادية فى عصورهم ، ومنعوا الناس من الانجراف وراء المادة و التهالك على الشهوات والزخارف ، بل استطاعوا بدورهم أن يعتصموا من فتنة المال و الحكم ، و إغراء المادة ، و لم تستطع سياط الملوك وسماطهم و موائدهم و ما يخلعون على العلماء و رجال الدين من المنح والوظائف أن يشتريهم ، كانوا أصحاب صلة قوية بالله ، الذين قوى إيمانهم وصحت نسبتهم مع الله ، واستولى على مشاعرهم حب الآخرة والشوق إلى لقاء الله و الحنين إليه ، الذين رسخ فيهم ذكر الله وتغلغل فى أحشائهم ، و أشرقت قلوبهم ، وتنورت لياليهم وطابت أسحارهم وتعطرت مجالسهم ، الذين آثروا الآخرة على الدنيا ، وقنعوا باليسير ورضوا عن الله ، وتأسوا برسول الله ﷺ و أصحابه فى حياتهم واتخذوهم لهم المثل الكامل و القدوة الحسنة ، و تمنوا واستطاعوا أن يقولوا و هم فى آخر عهدهم بالدنيا :

« غداً نلاقى الأحبة ★ محمـــــداً وحزبه »

الحرص على اتباع السنـــة
واقتفاء آثار الرسول ﷺ :

والوصية الثالثة — إن جاز لى ولمثلى أن يسميها وصية و أنا أتحـــدث إلى العلماء الأعلام ودعاة الإسلام — هو العمل بالسنة وترسم خطى رسول الله ﷺ ، الذى خصه الله بالرضا و المحبوبيـــة ، فصد كل طريق إلى القبول والرضا و النصرة والاجتباء و الهداية إلا طريقه فقال : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم(١)» و قال : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة(٢)» . و قد صدق الشاعر المؤمن حيث قال : « إن محمد العربى هو شرف العالم و كرامـــة بنى آدم فى الدنيا و الآخرة ، فمن أبى أن يكون غبار عتبته تربت يمينه ورغم أنفـــه » ، إن أعظم سعادة أيها العلماء الكبار ! أن يقدر لنا إحياء سنة من سننه و أن نوفق لاتباعه وتقليده فى الحياة كلها ، و أن نحب ما أحبه ونبغض ما أبغضه ، و أن نداوم على ما داوم عليه حتى نكون كتاباً

(١) سورة آل عمران ، الآية - ٣١ (٢) سورة الأحزاب ، الآية - ٢١

ناطقاً متحركا فى سيرته وشمائله و أخلاقه وعاداته ، هذا أقصى ما يبلغـــه عالم ويتمناه مؤمن من السمو و العلو ، و ليس اتباع السنة محدوداً فى بضع مسائل فقهية وعدد من أحكام الصلاة و أوضاع العبادة ، بل هو عام فى الحياة ، و المتبع المحب حريص على اتباع الرسول واقتفاء آثاره و تطبيق سننه فى حياته كلها و فى تصرفاته و أخلاقه و أوضاعه .

انقطاع الداعى إلى رسالته وتفانيه فيها :

و الصفة الرابعة التى يرجع إليها الفضل فى نجاح الدعوة وانقلاب الأوضاع وتحول التيار — مهما كان عنيفاً وطاغياً — من جهة إلى جهة ، هو عزم الداعى وقوة إرادته وانقطاعه إلى رسالته وتفانيه فيهـا ، فلا تجدون دعوة أو ثورة غيرت مجرى التاريخ أو مجرى الحوادث ، أو قضت على فتنة عمت وطغت ، أو أزالت خطراً محققا ، أو أسست مجتمعاً جديداً ، أو أعادت الروح و الحياة و الثقـــة إلى الأمة أو جماعة من أهل الحق ، إلا و على رأسها فرد عصامى صحت عزيمتـــه وقويت إرادته وملكت القضية قلبه و فكره ، واستولت على

مشاعره وعواطفه و تفكيره ، فيها لذته و فيها حياته ، كان ذلك شأن أبي بكر حين قام بالخلافة وظهرت الردة فى العرب و منع القبائل الزكاة ، وكان هذا شأن الامام أحمد ابن حنبل فى فتنة خلق القرآن ، و الامام أبي الحسن الأشعرى حين قام للدفاع عن أهل السنة و رد المعتزلة ، وشأن شيخ الاسلام ابن تيمية حين قام بمهمته الاصلاحية ومحاربة التتر ، وشأن السلطان صلاح الدين الأيوبى عليه رحمة الله حين قام لمحاربة الصليبيين وردهم على أعقابهم وحفظ العالم الاسلامى من الذل و الردة و الانهيار ، و شأن الامام أحمد بن عبد الأحد السرهندى حين قام لمنع الحكومة المغولية العظيمة القوية فى عصر أعظم ملوكها و المجتمع الهندى الاسلامى ، عن أن يصبحا لا دينيين برهميين ، و تحويلهما إلى الدين الاسلامى و الحضارة الابراهيمية المحمدية ، على اختلاف طبقات هؤلاء الدعاة و العظماء ودوائر عملهم و على ما بينهم من التفاوت و التفاضل ، و ذلك سر نجاح دعوتهم و تحقق ما أرادوه و كافحوا له ، و قد رأيت هذا شأن المصلح الكبير و العارف

الجليل الداعى إلى الله مولانا محمد إلياس ، فقد عاش فى هذا الهم و القلق و الجوى ، وانقطع إليه انقطاعاً كلياً ، و كنت أراه كأنه يظل و يبيت على حسك السعدان ، يتململ تململ السليم و يبكى بكاء الحزين ، و لا يهـــدأ له بال و لا يقرله قرار ، و ذلك سر انتشار دعوته فى هذا العصر المادى من غير تنظيم وشكليات ، و انتشار دعاته على بعدهم عن المظاهر ، فى الأقطار الاسلامية و الغربية و أمريكا وأوربا ، وتاثيرهم فى قلوب الناس ، حتى تفتح باب الدعوة الاسلامية فى اليابان على أيديهم أخيراً ، بعد ما بقى مقفلا من قرون (١) .

عمود الصفات « الربانية » :

و للداعى صفات أخرى يطول عنها الحديث وينشعب ، و لا يمكن استيعاب القول واستقصاء تفاصيله ، و قد جمعها القرآن باعجازه فى كلمة واحدة هى كلمة « الربانيـــة » فقال : « و لكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب و بما كنتم

(١) و لا يزال مركز هذه الدعوة فى دهلى مصدر قوة وحماسة ونشاط دينى وعلو همة فى الدعوة و الجهد فى سبيل الله .

تدرسون(١)، و مهما اجتهد المجتهد فانه لا يستطيع أن يأتى بكلمة أبلغ و أوضح ، و أوسع وأجمع من هذه الكلمـــة .

إن صفات « الداعى » الربانية تتجلى و تفهم بسهولة فى سيرة الدعاة الربانيين ، فهى أقرب طريق و أسهل طريق إلى معرفتها وفهمها وأقوى حامل على الاتصاف بها ، و أنا أقترح عليكم مطالعة الكتب التى ألفت فى سيرة المصلحين المجددين والدعاة الربانيين ، و ألفت نظركم بصفـــة خاصة إلى مطالعة سيرة مصلحين داعيين نبغا فى هذه البلاد وعاشا فى الماضى القريب ، و هما المصلح الكبير و المجاهد الجليل السيد أحمد ابن عرفان شهيد بالا كوت (١٢٤٦هـ) و الداعية العظيم الجليل الشيخ محمد إلياس الكاندهلوى (١٣٦٤ هـ)(٢) ، فليس لأحد أن يقول لقـــد تقدم عصرهما و بعد منشؤهما ، و مركز

---

(١) سورة آل عمران ، الآية - ٧٩

(٢) للحاضر كتاب مستقل فى سيرة كل واحد منهما فى أردو ، الأول فى أكثر من ألف صفحة و الثانى متوسط .

دعوتهما ونحن أبناء عصر آخر وبلد آخر .

الإغماض عن الخلافات الجزئية وتركيز الجهد على الدعوة إلى الله :

و أقول لكم أخيراً عملا بوصية رسول الله ﷺ بالنصح لكل مسلم ، خصوصاً لمن ولى أمرهم ، واعتماداً على الثقة التى بذلتموها لى و وضعتموها فى ، أن تغضوا البصر عن الخلافات الجزئية والاختلافات الفقهية التى لم تزل و لا تزال فى هذه الأمة ، فمن حاول القضاء على مذهب من هذه المذاهب وحاول الجمع على مذهب واحد أخفق وجاهد فى غير جهاد ، و ربما أحدث مذهباً جديدا أو أسس فرقة جديدة زادت فى عدد الفرق الاسلامية و فى بلاء الأمة الاسلامية ، و من تصدى لرد بعضها والانتصار لواحد ، تشاغل عن الأهم بغيره ، و أعنى بذلك المذاهب الفقهية التى قبلها سواد هذه الأمة ومضى عليها فريق من السلف و مآخذها الكتاب و السنة واجتهاد الفقهاء ، فعلينا أن نركز كل جهد وعناية و كفاية على الدعوة إلى الله و إلى دار السلام ، واتباع الرسول ﷺ .

معسكر دينى واحـــد :

و نكون معسكرا واحدا وجبهـــة مؤحدة أمام الدعوة اللادينية التى هى دين العصر الجديد ، و التى لا تفرق بين مذهب و مذهب ، و مدرسة و مدرسة ، و أنها إذا سادت وغلبت قضت على كل عرق دينى ، وهدمت كل بناء دينى ، فلنكن يدا واحدة عليها ، معتصمين بحبل الله جميعاً ، دعاة إلى الله وحده ، متعاونين على البر و التقوى .

إن المنهاج النبوى للدعوة و إن الداعى الربانى ، هما العاملان الأساسيان أيها الأخوان للدعوة فى هذا العصر ، و فى كل عصر ، فليكن هذا شعارنا ومبدأنا ولتكن هذه غايتنا .

و أخيرا أعود فأشكركم على هذه الكرامة التى أكرمتمونى بهـا أيها الإخوان ، التى كانت سبباً لهـــذا اللقاء الكريم ، و لهذه الفرصة السعيدة ، و لهذا الحديث الذى أفادنى قبل أن يفيد غيرى ، « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنـا من أمرنا رشدا » .